أنطون الجميل باشا

بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاته

للأستاذ منصور جاب الله

كانت المرزأة في المغفور له الأستاذ أنطون الجميل باشا ألمية ، إذ قضى نحبه فجر اليوم الثالث عشر من يناير عام ١٩٤٨ ولم يكن بين منصرفه من عمله ووجيمته إلا ساعة وبعض ساعة ، ولم يكن بين وجيمته واحتضاره إلا دقيقة وبعض دقيقة ، وكذلك لم يشأ القدر لهذا الرجل المتزن الرزين العامل الناصب أن يشكو دنفاً أو يضنى به أحد من أهله ومريديه ، فمضى في صمت إلى دنيا غير هذه الدنيا ، ووجد الله فلقاه حسابه .

ولقد وصف أنطون الجميل في حياته وبعد موته بأنه رجل رزين متزن ، والذين لم تكن لهم خلطة بالفقيد يحسبون أن رزانة الرجل إنما كانت مصروفة في زم اللسان والهدوء ، فلا يتكلم إلا بمقدار ، وأنه تجوز به الأحداث الجسام فلا يتحرك لها ولا ينبض له عرق . وما هكذا كان أنطون الجميل الذي عرفنا وسعدنا بعشرته وتلمذنا عليه ، وإني لأشهد أني عرفت منه رجلا ثائرا لا يهدأ إلا على مضض ، يهدر كالفحل إذا مست كرامته أو نال أحد من نزاهته ، وسيأتي الكلام بعد عن موقفه من أحد رؤساء الوزارة ليدرك الناس أي رجل كان هذا الرجل بين الرجال .

ولقد كان فقيدنا أديبا رقيقا قبل أن يكون صحفيا بعيد الصوت والشهرة ، والذين علت بهم السن من أمثال كاتب هذه السطور يدركون المكانة الأدبية التي كانت عليها مجلة « الزهور » لمنشئها « أنطون افندي الجميل » كما كان يدعى في ذياك الحين .

ولعل أشهر كتبه وأحظاها عند القارئين كتابه عن شوقي ، فقد كان الجميل أثيرا عند أمير الشعراء ، وكان من جلسائه الذين يأنس بهم ويصطفيهم ، إذ كان بالرجل وحشة فلا يأنس بكثير من الأنامي ، وإنما ينبو به المقام في كل مكان فلا ينطلق في الحديث إلا إذا خلا له وجه صديق أو صديقين كما حدثنا بذلك فقيد البيان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري .

وكان له باع في الترجمة من الفرنسية خاصة إلى اللغة العربية ومنذ ثلاثين عاما نقل إلى العربية كتاب « الفتاة والبيت » ووضع له مقدمة شيخ الشعراء المغفور له إسماعيل صبري باشا ، وكتب مؤخرته شيخ الأدباء السيد مصطفى لطفي المنفلوطي وعرفت وزارة المعارف لهذا الكتاب قدره فأقرته لمدارس البنات

والأدب عند أنطون الجميل غاية لا وسيلة فما كان يدور بخلده يوما من الأيام أن يتكسب منه ، وكذلك قنع أن يكون مترجما في وزارة المالية لقاء أجر صغير ، ثم سما به المنصب حتى استقال من خدمة الحكومة وهو « سكرتير » للجنة المالية

ولتركه خدمة الحكومة قصة طريفة لا بأس من إيرادها فقد قصها علينا بنفسه في مجلس من مجالسه المونقة إذ غدا عليه ضحى يوم من الأيام المغفور له جبرائيل تقلا باشا وطلب إليه أن يستقيل من وزارة المالية ليعمل رئيسا لتحرير صحيفة الأهرام خلفا للمرحوم داود بركات . فأجاب الجميل : وأين أنا من داود بركات ؟ دعني في عملي هذا ولا تحاول أن « تكشفني » ولا تفضحني بين الناس ! ودام الجدل بينهما ساعة وبعض ساعة بغير إقناع ولا اقتناع ، وإذ سقط في يد تقلا باشا قال لصاحبه : اعطني ورقة بيضاء . ثم مضى يكتب فيها شيئا لم يتبينه أنطون ، وبعدئذ استأذنه في الانصراف فلما سأله عن غايته أجاب بأنه يريد لقاء وزير المالية ، وألحف عليه في الرجاء عن الغاية التي يريد من أجلها لقيا الوزير ، فأجاب تقلا باشا في انفعال شديد : أريد أن أقدم إليه استقالة « أنطون بك الجميل » فذعر أنطون بك وقال لصاحبه ولكنني لم أقدم استقالتي ولم أكتبها . وعندئذ صارحه صاحبه بقوله : لقد كتبت الاستقالة ووقعتها باسم « أنطون » الجميل وسأرفعها بنفسي إلى الوزير ، وما عليك إلا أن تطمئن بالتزوير وتطلب محاكمتي لأني مزور !

وبكى عندها أنطون الجميل كما لم يبك في حياته ومضى مع صاحبه إلى وزير المالية حيث رفع إليه استقالته ليتولى من فوره العمل في الصحافة حتى أودت به الصحافة !

والحق أن أنطون الجميل سما بالصحافة وأحدث بها تقاليد بقيت ما بقي حيا ، فلما انتقل إلى الدار الآخرة انتقلت معه — وا أسفاه — إلى الدار الآخرة !

ومن هذه التقاليد ألا تتعرض صحيفة لما تكتبه صحيفة أخرى

بالتكذيب أو التفنيد ، وأن ينشر الخبر على علاته دون تذييل أو تعليق وللقارئ أن يفهم منه ما يشاء ، وأن تقدم المصلحة العامة على السبق الصحفي فما يضير الصحيفة المتزنة التي تحترم نفسها أن تروج يوما وتبور يوما مادامت المصلحة العامة لم تمس في قليل ولا كثير . وأذكر في هذا السبيل أني كنت أزوره في ليلة من الليالي إبان أزمة سياسية حادة وجيء له ببرقية مطولة أرسلها مراسل الصحيفة من لندن ، فتصفحها طويلا ، ثم ألقاها إلي قائلا : اقرأ ، فلما أتممت تلاوتها سألني رأيي فيها فقلت « برقية خطيرة جدا » فسألني : أترى من المصلحة نشرها ؟ قلت : لا . فألقى بها جانبا ولم تنشر ، وعلمت فيما بعد أن نفقات هذه البرقية جاوزت مئة جنيه ، وأنها لو نشرت لكان لها شأن أي شأن .

ومن هذه التقاليد ألا تستغني صحيفة من الصحف عن محرر يعمل بها وإن أمسك عن العمل أياما فقد يكون له عذر ، ولكن هذه التقاليد جميعا صارت مع الحسرة والألم في خبر كان !

واختير أنطون الجميل عضوا في المجمع اللغوي ، فتهيب الاختيار بادئ الرأي ، ثم لم يلبث أن خب في أعمال المجمع ووضع ، وكان من أشد الأعضاء مواظبة ومن أشدهم جلداً على العمل وأكثرهم إنجازاً لما يطلب منه .

ولما عين عضواً لمجلس الشيوخ رأى فيه أعضاء « المجلس الأعلى » لونا جديداً من البرلمانيين ، فهو رجل لا يسف ولا يهاتر ولا يعمد إلى المناورة أو المداورة ثم هو يخالط الأدب بالسياسة فيرتل الشعر في أثناء مناقشة الاستجوابات والبحث في الميزانيات ، ويدعو الوزراء إلى التشبه بأبي الدوانيق أو أبي جعفر المنصور !

بيد أن أنطون الجميل لم يطق البقاء في مجلس الشيوخ زمنا طويلا ، فقد رأى أن عمله البرلماني يتعارض وعمله الصحفي ، وإذ تضارب العملان وتناقضا ، كان لا مناص له من ترك أحدهما ، ولو كان جبرائيل تقلا باشا حيا وتقدم لترك العمل الصحفي غير آسف ، ولكن صاحبه مات وترك الأمانة في يده ، فلا مندوحة له من الاستقالة من مجلس الشيوخ ، وارتاع المجلس الأعلى لاستقالة الرجل وأبى عليه قبولها وبذل عنده الشفاعات والوساطات ، وذهب إليه رئيس الشيوخ يسعى كي يعدل عن استقالته ورجاه ـ مع هذا ـ أن يريح نفسه فلا يحضر كل جلسة ولكن الرجل العظيم أبى هذا قائلا : إما أن أؤدي العمل على وجهه وإما أن أدعه لغيري .

وأنعم عليه بالباشوية إثر استقالته من مجلس الشيوخ ، وقال خصومه إنه إنما استقال لينعم عليه بالباشوية وأحدث هذا القول موجدة في نفسه ، وأحسب أنه حدثني في ذلك فقلت له : لا عليك من كلام الناس . فلو لم تكن رجلا ذا شأن ما تحدث عنك أحد !

أما الموقف الذي أذكره له مع أحد رؤساء الوزارة ، فقد مضى عليه أكثر من عشر سنين ، وغيب الذين شهدوه في عالم غير هذا العالم ، ونحن اليوم في حل من إيراده بشيء من الإيجاز

فقد جاء أحد « المخبرين » لأنطون « بك » الجميل بنبأ في شهر سبتمبر عام ١٩٤٠ مؤداه أن الجيش الإيطالي اقتحم الحدود المصرية من جهة الغرب ، وتريث الجميل كعادته ، فلم يشأ نشر الخبر لوقته وإنما أرجأه يوما أو يومين ، ثم عرضه على وزير الحربية ، وأجازته الرقابة فنشره ، وإذ بصر به رئيس الوزارة حينئذ ـ وهو المغفور له حسن صبري باشا ـ هاج هائجه ونسي الصداقة الوثيقة التي تربطه بأنطون الجميل وكتب بلاغا « رسميا » قاسي اللهجة لاذع الأسلوب يرمي فيه كاتب الخبر بالتزيد وإثارة الخواطر .

ولم يفعل أنطون الجميل شيئا إزاء هذا التحدي إلا أن أشهد وزير الحربية على صحة الخبر ، ثم بدأ تحديه لرئيس الوزارة فمنع نشر أنباء مقابلاته وحفلاته ، وكان ينشر خبر اجتماع مجلس الوزراء مجرداً من ذكر اسم رئيس الوزراء ، ويطوف رئيس الحكومة في البلاد فلا يذكر عنه شيئا ، وتنشر صور الوزراء جميعا وتحذف صورة كبيرهم !

وهكذا ، وهكذا ، حتى ضاق المغفور له حسن صبري باشا ذرعا ، وبذل الوساطات والشفاعات لدى أنطون الجميل ، حتى أنه أرسل إليه يقول : أرجو أن تشتمني في جريدتك وتقول في ما قال مالك في الخمر ، أما أن تهمل ذكر اسمي مرة واحدة فهذا ما لا طاقة لي باحتماله

وتدخل المرحوم عبد الحميد سليمان باشا في المصالحة ، وشرط